إشكاليات توظيف المناهج النقدية الغربية
في دراسة الخطاب الأدبي العربي

الدكتور عبد الحميد سيف الحسامي
المملكة العربية السعودية

المقدمة:

تغدو قراءة المشهد النقدي العربي الحديث من خلال مساءلة مناهج دراسة الأدب العربي أمرًا ضروريًا تحتمه طبيعة اللحظة التاريخية الراهنة التي بدأ فيها الإنسان العربي يتحسس الطريق إلى ذاته بعد تعرضه لعدد غير يسير من الهزات التي أخذت ترسم علاقة الذات بالآخر – الغربي على وجه الخصوص – ولم يكن النقد الأدبي بمعزل عن حركة التفاعل والتثاقف مع الغرب بل لعله كان من أشد الميادين تجسيدًا لها، ولعل الموقع المتفوق الذي يحتله الآخر الغربي قد جعله في الطرف المنتِج المهيمن وجعلنا في الطرف المستهلِك المقلِّد – بحسب القانون الاجتماعي الذي يجعل الأمة المغلوبة مقلدة للأمة الغالبة– وإذا كانت الاستعارة من الآخر الغربي متحققة في الجوانب المادية فإن الجوانب الفكرية والثقافية أسرع في الهجرة والانتقال، فقد شهدت عمليةَ استعارةٍ مبكرةٍ ومكثفةٍ، وكان مضمارُ النقد الأدبي حافلاً بصور الاستعارة لمدارس وتيارات ومناهج النقد الأدبي وتوظيف معطياتها في دراسة الخطاب الأدبي العربي شعرا وسردًا .

وتزداد عملية الاستعارة يوماً بعد يوم لاسيما مع تهشم الحدود والحواجز بين الشعوب والثقافات، فضلاً عن أن العالمَ الغربيَ يعجُّ بتحولات مذهلة، ويشهد تطوراتٍ متسارعةً في ظل غيابنا عن مسرح الفعل الحضاري .. و يظل " يمتد في فراغنا " " فالحداثة لم تستشرنا ولم تطلب رأينا قبل أن تدهس بابنا؛ لأنها لم تسلك يوماً وفق منطق الاستشارة والاختيار فهي أشبه بنهرٍ هائج وكاسح لا يبقي ولا يذر يجرف كل شيء في طريقه " ([1])

فأصبحت عملية استعارة المناهج النقدية الغربية وتوظيفها في دراسة الأدب العربي تمثل إشكالية تتجسد بعدة مظاهر سينهض هذا البحث بتتبعها ورصد حيثياتها مقدماً بعض المقترحات التي من شأنها الإسهام في قراءة المشهد النقدي العربي وتقويمه.

إذ ينبغي للناقد أن يشهر الأسئلة في مضمار البحث عن الهوية وتقويم المشهد المعاصر.

ولا تدعي هذه الدراسة السبق إلى تناول إشكالية المنهج النقدي العربي فقد سبقت بعدد من الدراسات على مدى العقود السابقة وعقدت لها ندوات ومؤتمرات. ([2]) بيد أن هذه الدراسة تسعى

---

1 – الحداثة وما بعد الحداثة ، محمد سبيلا ، دار توبقال للنشر، ط1، 2006م، ص 91

2 – ذكر د يوسف بكار في مقالته (نقادنا ونقدنا العربي الحديث (مقاربة عامة) عددًا من المجلات التي أفردت أعدادًا خاصة لهذه القضية منها مجلة فصول والقاهرة وعالم الفكر والأقلام والموقف الأدبي، والمنهل وعلامات في النقد،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى استلهام تلك القراءات السابقة في ضوء منظورٍ متكامل يفاتش تلك الرؤى، و يستوعب عناصر تلك الإشكالية، ويتناولها بشكل مكثف وموجز .

إشكاليات توظيف مناهج النقد الغربية في دراسة الخطاب الأدبي العربي:

" يجري على النقد العربي الحديث الحكم نفسه الذي يجري على وجوه الحضارة العربية في جملتها وهو تأثره منذ ما يزيد على قرن بالنقد الغربي وسعيه إلى الانخراط في مساره وإنْ بأشكال مختلفة، ونسب متفاوتة من بلد عربي إلى آخر، ومن فترة إلى أخرى " ([3])..

ولا شك في أنّ النقد العربي الحديث قد حقق إنجازات لا يمكن إنكارها وأنه نقل الفكر العربي كماً ونوعًا من مرحلة النقد الذوقي القائم أساسًا على جمع المعلومات، وإرسال الأحكام التقويمية الجمالية الجاهزة إلى مرحلة القراءة الآخذة بأسباب التحليل الموضوعي العلمي، وإن تفاوتت قيمة الدراسات المنتحية هذا الاتجاه ." ([4])

إن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو : ما المنهج الذي نتوسل به في قراءة الخطاب الأدبي العربي ؟

وهل المناهج القائمة في الساحة النقدية العربية أصيلة أو مستعارة ؟ هل هي عربية أو أجنبية ؟ وهذا البحث يقوم على فرضية أنها مناهج وافدةٌ علينا من الآخر الغربي تحمل آثار ثقافة – بل ثقافات متعددة – أخرى، هي مناهج غربية درج النقاد على استعارتها وتوظيفها في دراسة الأدب العربي، منذ عقود من الزمن، ونجمت عن ذلك جملة من الإشكاليات التي أخذ الناقد والأديب والقارئ يتبرمون منها على السواء.

وما من شك بأن إشكالية الاستعارة من الآخر على مستوى المنهج النقدي تعد جزءاً من منظومة حضارية، ومفردة من مفرداتها، فالعربي قد أخذ يستجلب مفردات الآخر في مجالات الحياة المختلفة بنسب متفاوتة من مجال إلى آخر، وبكيفيات متعددة تحت ضغط ما يسمى " الاندماج الكُرْهي " بحسب تعريف د . طه عبد الرحمن ([5])

وقد تفاوتت الآراء تجاه هذا الوافد – منذ وقت مبكر في العصر الحديث – ما بين متحمسٍ ورافض، يقعان على طرفي نقيض يحاول طرف ثالث أن يعمد إلى التوفيق بينهما، بيد أن جملةً

كما تعقب عددًا من أقوال النقاد في أزمة النقد الحديث .(انظر علامات ج29، م 8، جمادى الأولى 1419هـ سبتمبر 1998م ص : 40 وما بعدها)

3 – النقد العربي الحديث، محمد الناصر العجيمي، علامات ج56، م 14، ربيع الآخر 1426هـ يونيو 2005م 152.

4 – نفسه، ص 176

5 – روح الحداثة، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2006م ص: 266. (وهو أن يجبر المجتمع على تلقي المفاهيم المخترعة على علاتها مسلما بها ومنفعلا بمضامينها فيكون هذا الاندماج عبارة عن انخراط استتباعي يضر بقدرة أبنائه على إبداع الأفكار وإنتاج المعارف " وهو يقابل الاندماج الطوعي ص 267.)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من العوامل العامة والخاصة أسهمت في تعزيز مسار الاستعارة من الآخر، وأضحى الأدب العربي الحديث يواجه اليوم إشكاليات متعددة لأن النقاد " تحركوا في نظرتهم إلى الأدب العربي من داخل نظرية الأدب الأوروبي ومفاهيمه ومقوماته، و لقد كان نقل هذه النظرية من الآداب الأوروبية لتطبيقها على الأدب العربي أمراً خطيراً يحمل الكثير من وجوه التعارض "([6])

وقد ارتفعت أصوات نقدية في المشرق العربي وفي مغربه، تحاول أن تقدم أبعاد الإشكالية، ومظاهرها وآثارها .

فالدكتور محمود أمين العالم يذكر أن التيارات النقدية العربية بشكل عام ما هي إلا أصداء لتيارات نقدية في الفكر الأوروبي " ([7])

والدكتور عبد القادر القط يبين خطورة نظريات النقد الغربي ومناهجه ويرى أن النقد العربي مصاب بداء التأثر ببعض نظريات النقد الغربي ومناهجه في التطبيق، ..وأن الأمر انتهى بهؤلاء إلى الاندماج الكامل مع الغرب في المنهج والأسلوب، وتجاهل هؤلاء النقاد الفروق بين النصوص العربية التي يتجه إليها النقد بالتحليل والتأويل ([8])

أما د. عناد غزوان فيسمي ذلك بـ" **الضياع الثقافي**" بين مناهج نقد الشعر المعاصرة ، ويرى أن هذه المنهجية تحولت بوعي أو بلا وعي إلى ما يشبه الإشكالية والتعقيد حين صار النقد العربي وكأنه جسم غريب عن ماهية الحركة الأدبية الثقافية العربية ([9]) .

ويرى د.أنور الجندي أن المنهج الغربي المستورد غريب على الأدب العربي ولم يكن الحكم صادقاً عليه وكانت قوانينه مختلفة تماماً مع جوهر مفاهيمنا بالنسبة للأدب، أما العقاد فقد شن حملة عنيفة ضد محمود أمين العالم فقال : إن أدب مصر برئ من لوثة المذاهب الدخيلة " ([10])

ويؤكد د. وهب روميه أننا نعيش أزمة في الحياة وفي الثقافة معافى آن " ويتساءل: فأين يقع النقد الأدبي من هذه الأزمة المركَّبَة ؟ ويضيف :إن النقد كما هو معروف أحد أبنية الثقافة المعقدة ففي هذا البناء تتجمع وتتضافر معارفُ إنسانيةٌ شتى، وأدوات معرفية كثيرة وعلى الناقد أن يكون متعدد الحِرَفِ " بتعبير ياكبسون" ([11]) ويؤكد أن إحساسنا العميق بالأزمة التي تلف وجوه حياتنا جميعاً وتتأصل فيها حياة عربية مأزومة، وثقافة عربية مأزومة، وإنسان عربي مأزوم هو الذي دفعنا بالانحياز المنهجي أو إلى شطط الاستعارة من الآخر، وإن كان هذا الإحساس مشروعاً وصحيحاً ونبيلاً فإن ما جرّ إليه من الاغتراب عن الذات أو محاولة الفرار منها إلى الآخر ليس مشروعاً ولا

---

6 – خصائص الأدب العربي، ص45 . .

7 – انظر الأسس الفلسفية لنقد ما بعد الحداثة د محمد سالم سعد الله، دار الحوار، دمشق، ص : 77.

8 – عن : نظريات النقد الحداثي في الميزان، محمد حسين زيني، مجلة الأدب الإسلامي ع 45، سنة 2005م . .

9 – مستقبل الشعر وقضايا نقدية أخرى، ص52.

10 – خصائص الأدب العربي. ص46

11 – شعرنا القديم و النقد الجديد، ص20.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صحيحاً ولا نبيلاً .. فكأنما غاب عنا أن الانفتاح على العالم من حولنا ولانتفاع بثقافاته وعلومه أمرٌ، وإن نفى الذات وتغييرَ الجلود والاغترابَ في الآخرِ أمرٌ آخرُ" (12) .

أما د . ناظم عودة فيذهب إلى أن عملية استئناف النقد الأدبي عند العرب في القرن التاسع عشر تندرج في باب : ثقافة التابع ، ويقول إن عملية الاستئناف لم تستطع أن تتجاوز معرفيًا وسيكلوجيًا التهمة القديمة التي وجهت إلى العقل العربي الإسلامي تهمة التابعية العقلية، وعدم أصالة المفاهيم . (13)

وفي محاولة لرصد ملامح أزمة الخطاب النقدي العربي يرى د .عبد الواسع الحميري أنها لم تقتصر على الحديث بل تمتد إلى القديم " بدأت منذ لحظة الولادة الأولى لترافقه طوال مسيرة حياته وتطوره حتى مطلع عصر النهضة وتلك هي الأزمة الأولى، أما الأزمة الثانية فيرى أنها لازمت الخطاب النقدي الحديث أو المعاصر منذ منتصف ستينيات القرن الماضي على الأقل وظهور تيارات الحداثة وما يسمى " ما بعد الحداثة " حتى اللحظة الراهنة .. ويرى ضرورة التوقف عند هاتين الأزمتين ومحاولة الكشف عن ملامحهما بحكم أنهما قد أسستا بشكل فاعل في تهميش دور الخطاب النقدي العربي وتغييبه عن ساحة الفعل والتأثير في الحياة الثقافية والإبداعية العربية (14)"

1- إشكالية التباين الثقافي :

إن من السنن الكونية التعدد والاختلاف "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ "الروم22

فكل أمة من الأمم لها خصوصيتها الثقافية بكل ما يحمله مفهوم الثقافة من معانٍ وكل ثقافة تمثل مجموعًا من القيم فريدًا، ولا نظير له؛ لأنه بتقاليدها وأشكالها التعبيرية يستطيع كل شعب أن يبرز بالكيفية الأكثر اكتمالاً حضوره في العالم " (15) .

كما أن تأكيد الهوية الثقافية يسهم في تحرير الشعوب، وخلافاً لذ لك فإن كل شكل للهيمنة يلغي أو يشوه هذه الهوية " فالهوية الثقافية ثروةٌ حافزةٌ تنمي إمكانات تفتح النوع البشري بحفز كل شعب وكل مجموعة على أن تتغذى من ماضيها، وأن تقطف الثمار الخارجية الملائمة لخصوصياتها، وأن تواصل بهذا مسلسل إبداعها الخاص "(16) ومن شأن كل أمة أن تكون لها

---

12 - نفسه : ص15

13 - تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر،ناظم عودة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009م، ص145.

14 - انظر اتجاهات الخطاب النقدي العربي وأزمة التجريب، دار الزمان، دمشق، ط1، 2008م . ص: 7.

15 - أسئلة الإبداع ، ص68

16 - نفسه، ص71،68

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلسفتها ومذاهبها ومفاهيمها، فالأمم الغربية نفسها لا تقبل أمةٌ فكرَ أمةٍ أخرى إلا بوضوح كامل يقوم على أسس الاقتناع بالأصل الأصيل ." (17)

ويرى محمود شاكر أنَّ : " ثقافة كل أمة مرآة جامعة في حيزها المحدود كل ما تشعث وتشتت وتباعد، فثقافة كل أمة، وكل لغة هي حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع كلها ملموسة في الدين المتلقي عند النشأة ...فالثقافات متعددة تعدد الملل، ومتميزة بتميز الملل ولكل ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال منتزع من الدين الذي تدين به لا محالة "

ويؤكد أنه : باطل كل البطلان أن يكون في هذه الدنيا على ما هي عليه ثقافة يمكن أن تكون ثقافة عالمية أي ثقافة واحدة يشترك فيها البشر ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم فهذا تدليس كبير، و إنما يراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة لتبقى تبعاً لها " ويدعو إلى " أن تفصل بين ما يسمى ثقافة وبين ما يسمى اليوم علماً –أعنى العلوم البحتة– لأن لكل منهما طبيعة بيانية ليست للآخر، فالثقافة مقصورة على أمة واحدة، تدين بدين واحد، والعلم مشاع بين خلق الله جميعاً يشتركون فيها اشتراكاً واحداً مهماً ".

ويضع محمود شاكر شروطاً للمشتغلين في ميدان المنهج بقوله " والنازلون في ميدان المنهج وميدان ما قبل المنهج من الكتاب والعلماء " في كل لغة وفي كل أمة ،وفي كل ملة، وفي كل ثقافة لهم شروط محكمة لا يمكن إغفالها البتة فهي أركان لا يقوم بناء إلا عليها، ولا يمكن أن يسمى كاتباً، أو عالماً، أو باحثاً، إلا من حاز أكبر قدر من هذه الشروط ضربة لازب ... و جماع هذه الشروط كلها منوط بثلاثة أمور: لغته التي نشأ فيها صغيرًا، وثقافة أمته التي ينتمي إليها .

و ارتضع لبانها يافعاً، وأهواؤه التي يملك ضبطها أولا يملكه .." (18).

ولذلك فإن " الوعي بأن الثقافة العالمية واحدة هي أسطورة وأنه لا ثقافة إلا ثقافة المسيطر الذي يمتلك أدوات إبداعها ونشرها، فالثقافة خاصة مرتبطة بحضارة وشعب ولغة ومرحلة تاريخية، إن الثقافة تنبع من الهوية الثقافية وليس من التغريب الثقافي " (19)

" ولا شك في أن الحداثة الغربية حققت في جانبها العلمي والتقني ما كان منتظرًا منها، لكن هذه الإيجابيات والإنجازات باطنت أشكالاً من الهيمنة الثقافية والسيطرة الاقتصادية والاستتباع السياسي للشعوب الأخرى، بل باطنت داخليًا الفشل في تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الناس (20)"

---

17 – خصائص الأدب العربي، ص 271 .

18 – المتنبي ،رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص : 74 ،75.

19 – نحن والعولمة، نصف قرن من النقد الأدبي، ماجد السامرائي مهرجان المربد، العراق ،2000م د ،ص : 345.

20 – الحداثة وما بعد الحداثة، محمد سبيلا، ص: 52.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا نظرنا إلى خارطة المناهج النقدية المستعارة عربياً لوجدنا أنها تمثل أشتاتاً متباينة من حيث المنطلقات والجذور الفلسفية، حيث إن كل منهج نقدي يعد جزءًا من تجليات فلسفة ما، و يحمل بصمات ثقافة شعب أو أمة من الأمم، الغربية، فالغرب ليس رؤية واحدة والبيئات الغربية التي نجمت فيها المناهج النقدية ليست واحدة إنها متباينة حد التناقض " فنصبح إزاء تشكيلة من الأفكار كانت كالفراشات المزركشة لا تتوقف عن الانتقال والتجوال في المراكز الحضارية والفكرية الكبرى في أوروبا "(21)

وكل فلسفة أفرزت منهجًا نقدياً، وقد تسابق النقاد في اجتلاب تلك المناهج والتبشير بها، دون مراعاة لطبيعة المزاج الثقافي الذي أفرزها وشكل نسقها، من ناحية، ومن ناحية أخرى لم ينظروا إلى خصوصية الثقافة العربية، ومدى التباين بينها وبين الثقافة – بل الثقافات الغربية– التي أفرزت تلك المناهج النقدية – والتي بينها من الاختلاف ما لا يحد ولا يحصى . " فالحداثة التي داهمتنا فجأة وأخذتنا على حين غرة هي **أولاً** حداثة برانية وليست جوّانية بمعنى أنها لم تنشأ في تربتنا العربية ... هي حداثة دخلت مع الاستعمار، ومن ثم غربتها وغرابتها وغربيتها واغترابها ...وهي **ثانيًا** حداثة عنيفة في طريقة حلولها وحصولها وفي الفعل التفكيكي الذي تمارسه على البنيات الاجتماعية والفكرية التقليدية محدثة شروخًا في الواقع وفي الوعي والذاكرة واللغة والخيال وطرق الإدراك، وهي **ثالثاً** حداثة يختلط فيها بشكل رفيع التحرر بالسيطرة "(22)

والمناهج النقدية هي إفراز لتلك التحولات التي طرأت على الساحة الغربية؛ فلم يكن المنهج الاجتماعي في النقد – على سبيل المثال– بمقولاته المختلفة سوى تعبير عن جوهر الفكر الماركسي ونظرته للحياة، وكذلك مفهوم " الانعكاس الأدبي " الذي يرى النص انعكاساً حتمياً للواقع ليس سوى معادل أدبي لمفهوم الطبقات في الفكر الماركسي، أو البنية الفوقية وعلاقتها بالبنية التحتية، فالأدب ليس عملاً فردياً بقدر ما هو انعكاس للمجتمع – للبنية التحتية – التي تشكل البنية الفوقية، والفن – عموماً – جزء منها, وكذلك شأن المناهج الأخرى.

ولم تكن واقعيتنا أبدا حتى في أول عهدها واقعية تقوم على المذاهب المادية الصرفة فليس فيها هذا المذهب الذي يحل فيه المجتمع محل الفرد بحيث تتلاشى شخصية الفرد تماما "(23).

وفي المقابل، كانت المناهج النصية البحتة – التي تتنكر لكل سياق خارجي في عملية النقد – إفرازًا لمزاج ساد المجتمع الغربي في بعض مراحله في نزوعه نحو علمنة الحياة وفصل الدين عن الحياة، وإدراك الحياة دون التوسل بالوحي أو بالتاريخ ... إنها تحاول أن تفلت من قبضة الصيرورة، ومن حتمية التأريخ، وتسلخ النص عن كل ما هو قبلي أو محايث، وذلك ما لا تقبله الثقافة العربية الإسلامية، ولا يتسق مع تصورها للحياة .

---

21 – نفسه ص 45.

22 – الحداثة وما بعد الحداثة، محمد سبيلا ،ص: 42.

23 – دراسات في النقد الأدبي المعاصر، العشماوي، دار الشروق، القاهرة ص 118

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد توجد مسوغات لهذا المنهج أو ذاك ما دام نابعًا من وحي ثقافته التي أفرزته بتلقائية تامة، لكنّ إسقاط أي منهج بمحموله الثقافي على النص العربي لتشريحه بموجبه يفضي إلى إشكالية جوهرية، فالمنهج ليس آلة صماء بريئة إنه خلاصة ثقافة معينة، ينسجم معها، ويتواءم ويتكامل ويتعاضد، وهو ما لا يمكن أن يحدث على تلك الشاكلة في ثقافة أخرى .. حتى ولو حاول الناقد أن يجاري روح العصر" فما يسمى نبض العصر أو روح العصر لا يعني انسلاخك من واقعك ورحيلك إلى واقع آخر، وإن نبض العصر يعني نبض قلبك الذي بين جوانحك وهو بالتأكيد قلبك أنت، ولا يشبه أيَّ قلبٍ آخر إلا بالشبه الخارجي لا غير...وكما يكون للعصر نبض لا بد أن يكون لقلبك أشجانٌ خاصةٌ، وتلقٍ خاصٌ ينسجم مع فصيلة دمك، وعدد الكريات الحمراء والبيضاء في كل ملمتر من هذا الدم"(24)

" إن الأدب يحمل في ثناياه بيئته التي نبت فيها وعقل صاحبه وشعوره ومزاجه وشخصيته كلها ثم يتأثر طردًا وعكساً بقرائه وسامعيه"كما يقول أحمد الشائب (25).

ولا شك في أننا عندما نؤسس لمقاربة نقدية بمناهج هي إفراز لثقافة الآخر فإننا نكون قد أشحنا بوجوهنا نحو تلك الثقافة ننضد مفرداتها، ونجهد في إدراك ملامحها، وفي الوقت نفسه نكون قد حققنا قطيعة مع تراثنا العربي الممتد عبر قرون متعاقبة، نزهد في قراءته والإنصات لما يكتنزه " فالعرب بحكم مميزات حضارتهم، وبحكم اندراج نصّهم الديني في صلب هذه المميزات دعوا إلى تفكير اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب بل قادهم النظر أيضاً إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخراً بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين "(26).

وهذا الحكم الذي يقدمه د.المسدي مشفوع بالكشف النصي والاستدلال الضمنى، كما يقول.

ولعل الإصرار من لدن نقاد عديدين في توظيف المنهج النقدي الغربي في دراسة النص العربي ينطوي على خطلٍ كبير لا سيما حينما يتم انتزاعه من بيئته لزراعته في بيئة أخرى دون مراعاة للخصوصية، ودون تكييف ما ..

وقد أدى ذلك إلى ما يسمى " **بالشرخ الثقافي** " بحسب المديني (27)، وعبد العزيز حمودة (28) أو **التمزق** بحسب تعبير شكري عياد الذي يرى أن الناقد العربي **ناقد هجين** فلا هو غربي ولا هو عربي، لم يتمكن من تمثل الثقافة الغربية ولم يتواصل مع الثقافة العربية. (29) فهناك فرق .

---

24 – الأدب والصراع الحضاري، شلتاغ عبود، ص22.

25 – انظر خصائص الأدب العربي، ص 56

26 – التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي ص24

27 أسئلة الإبداع ص 21.

28 – المرايا المحدبة ص 37.

29 – عن المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ،ص 37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما يرى د. النويهي بين تطعيم أدبنا الخالق الجديد بالتراث الغربي وبين إقحام مقاييس النقد الغرب على تراث تختلف طبيعته عن طبيعة الآداب التي استنبطت تلك المقاييس منها " (30) ويذهب بعض الدارسين إلى أن نقل المذاهب الأجنبية أدبية كانت أم غير ذلك هو إحدى وسائل الغزو والتشكيك في الدين والتاريخ واللغة والحضارة (31)، فضلاً عن أن " النقد الأدبي العربي قد وقع في شرك **الفوضى** النقدية حينما استورد الأزمة بكل إفرازاتها لتحل في بيئة جديدة تحتاج إلى عقود طويلة من التآلف من أجل صياغة لغة مشتركة ورؤية واضحة ونظرة متماسكة " وقد أدت عملية الاستعارة – للمنهج الغربي– ليس إلى إلغاء هوية الأمة بل إلى إلغاء هوية الناقد العربي وتحويل شخصية الثقافية إلى ظلٍ باهتٍ وكائنٍ مستلبِ الإرادة . (32)

وتزداد الهوة اتساعاً حينما " تنقطع الصلة بين مواقف أصحاب هذه المناهج في النقد ومواقفهم في الحياة فكأن النقد لا يصدر عن رؤية شمولية للحياة وعن موقف محدد منها " (33)

وهو ما لا يوجد في النقد الغربي فكل ناقد يتبنى منهجاً نقدياً منبثقاً من رؤيته الخاصة، وقد يتحول إلى منهج آخر نظرًا لتحول في قناعاته الفكرية .

وهناك شرطان مهمان ينبغي توفرهما لإنتاج المفاهيم والنظريات هما في – رأي ناظم عودة – **المجال المعرفي والواقع** "(34) وقد توفر هذان العاملان في إنتاج المفاهيم والنظريات الغربية، ويرى أن هذين العاملين – فضلاً عن عدم وجود رؤية فلسفية تؤطر الممارسة النقدية – قد ساهما في فشل وتدمير المفاهيم المتداولة في نطاق الثقافة العربية .

2– إشكالية الفجوة الزمنية :

نقصد بالفجوة الزمنية : مقدار الفارق التاريخي بين ظهور المنهج النقدي في الغرب ،واستعارة النقاد العرب له، فمن المعلوم أن التأثر المنهجي لدى العرب بمناهج الغربيين قد بدأ منذ مطلع القرن العشرين، فقد تأثر قسطاكي الحمصي في كتابه " منهل الوراد في علم الانتقاد" بكتاب بوالو" فن الشعر " الذي اقتفى فيه أثر أرسطو وهوراس، محاولاً تطبيقه على أدب الكلاسيكية الجديدة في القرن السابع. " (35)

---

30 – قضية الشعر الجديد، د . محمد النويهي، القاهرة د.ت الدر القومية للطباعة والنشر . 37.

31 – نظرية الأدب في ضوء الإسلام، عبد الحميد بوزوينة ،دار النشر للنشر والتوزيع ط1 / 1990م ص8

32 – أثر المناهج النقدية الحديثة في النقد العربي، أزمة الخطاب النقدي المعاصر، عبد الستار جواد 117–118 .

33 – شعرنا القديم والنقد الجديد، وهب رومية ص17

34 – تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر،ص147.

35 – أثر المناهج النقدية الحديثة في النقد العربي، ، المنهج التاريخي أنموذجاً، عمر الطالب ص 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا كان " النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد ولادة الكثير من المدارس النقدية والاتجاهات الأدبية والفنية، فإن هذه الولادة المتسارعة المحكومة بالأزمات أدت إلى إلغاء الكثير من المناهج النقدية الرصينة " (36)

ولعل ظهور حركات نقدية جديدة أدى إلى غياب المفهوم التقليدي للنقد الأدبي وإلى بروز اتجاهات ومشاريع يلغي بعضها بعضاً مما أدى إلى خلق نوع من الفوضى النقدية التي ألقت بظلالها الكثيفة على دور الناقد "(37)

ولا شك في أن المنهج النقدي في المجتمع الغربي يأخذ حظه من النشأة والاكتمال مرتبطاً بالسياقات المختلفة التي تمخض عنها، وربما استهلكت رحلة اكتماله عقودًا من الزمن؛ ليصبح قادرًا على الانتشار، فيتلقفه بعض النقاد العرب بجاهزيته . في مدة قصيرة . ويحاولون تطويع النص العربي لمقولاته، فتنشأ هذه الفجوة التي تؤدي إلى الإرباك والارتباك، وما إن يبدأ الناقد العربي والقارئ على السواء في تحقيق شيء من الانسجام مع هذا المنهج إذا بمنهج آخر في بيئة غربية يكون قد تأهل ليغدو ذا قابلية معينة، فينبهر به ناقد عربي، ويستعير آلياته لتقديمها إلى حقل النقد العربي دون تمهيد مما جعل "العملية النقدية أسيرة النزعات الفردية، وحالات الانبهار لكل جديد يحمل لغة مراوغة، حتى فقد النص النقدي وظيفته في إضاءة العمل الأدبي ."(38)" ولذلك فقد ظلت اجتهادات النقاد العرب فيما يتصل بأوجه تعاطيهم مع النقد والنظرية والتنظير، ونقد النقد، وغيره من المنهج الواقعي نحو المنهج الشكلي فالبنيوي فالتكاملي فالنفسي ثم الاجتماعي وغيرها مستمرة ،ومن ثم فهذه الدورة خلقت دوارًا حقيقيًا لدى المتلقي الذي عانى من عسرِ هضمِ هذا الكم من التصورات المنهجية في فترات قياسية فضلاً عما شابها من نقص معرفي وإهمال ظاهر للخلفيات الفلسفية والأيدلوجية التي انبثق منها المنهج الثقافي للمنهج؛ إذ لكل منهج زمن ثقافي يعطيه موقعة ودوره . (39)

ولا شك في أن المتأمل في مسيرة الفكر الغربي يجد أنه قد شق طريقه من المعاصرة إلى الحداثة دون " قفز مولد للقطيعة وقد تأتى ذلك بفضل انصهار المادة والموضوع في تفكير رواد العلمانية فكان الصراع المنهجي خصيبًا إلى حد الطفرة أحياناً، ولكن المنظور العربي ما زال يتصارع والحداثة من حيث هي موقف مبدئي " (40)

إن النقد الغربي إفراز تلقائي لحركة الذات الغربية عبر قرون عديدة، ولذلك فإن سحب المنهج النقدي من واقعه وزمنه الثقافي، إلى واقعنا الأدبي يعد إشكالية كبيرة؛ لأن المنهجَ المستعارَ طارئٌ، وفي مدة

---

36 – أثر المناهج النقدية الحديثة في النقد العربي / أزمة الخطاب النقدي العربي، عبد الستار جواد، ص: 123.

37 – نفسه ص123.

38 – نفسه ص123.

39 – نقد النقد وأبعاد التنظير النقدي ،علامات ج56 م4 ا , يونيو 2005م ص132.

40 – التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، ص : 11.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

زمنية وجيزة لا تمثل جزءًا يسيرًا من المدة التي استغرقها خلال تخلقه في البيئة الغربية "(41) فليس من المقبول منطقياً أن يبدأ الناقد العربي بالترويج لمنهج نقدي غربي تكون الحياة الغربية قد تجاوزته، وثارت عليه، بل يكون قد أصبح رميمًا نبت الربيع على دمنته؛ لأن طبيعة التلاقي الحضاري وعملية التأثر والتأثير تقتضي زمناً كافياً للاكتمال والنضج والهجرة إلى مواطن جديدة ولا ينبغي القفز على الشروط التاريخية والثقافية " فالبنيوية مثلاً عندما وصلت إلى وطننا العربي متأخرة، نظّر لها وكتب فيها باحثون ونقاد تراوحت كتاباتهم بين الالتزام الدقيق بمقولاتها (صلاح فضل) والخروج على أطروحاتها أو تركيب أكثر من منهج نقدي (الغذامي) وذلك تبعاً لاستيعاب هؤلاء النقاد للمقولات البنيوية وتبعاً لمتابعاتهم لجديدها" (42)

وما دام المجتمع العربي يقع في موقع المنفعل لا الفاعل، والمستهلك لا المنتج للمناهج النقدية فإنه قد " ظل في العقود الثلاثة الأخيرة في حركة هائلة من التجريب النقدي بكل ما تعنيه كلمة التجريب من الانبهار والتشتت والانتقاء، وعدم الوضوح واللهفة إلى اللحاق بالحداثة، وغياب المنهاج والقفز بين الاتجاهات النقدية " (43)

ولذلك يدعو بعض النقاد – ومنهم مصطفى ناصف – إلى أن نرعى مبدأ التطور الذاتي للأفكار، هذا التطور الذي لا يكون إلا في ظل إحساس بحاجات وجودنا لا حاجات الآخرين "(44) و يرى د. عناد غزوان أن تمثل الماضي بوصفه تراثًا رائعًا يمثل الزمن المتطور والمتجدد لحركة النقد العربي، واستثماراً حديثا ومعاصرًا بوصفه الحاضر في حداثته ومعاصرته استمرارًا جديدًا لهذا الزمن التراثي سيؤدي إلى وضوح المنهج النقدي بمصطلحاته التراثية والجديدة، وسيسهم حتماً في رفد الحركة الأدبية العربية العامة بالقدرة على الديمومة والبقاء والتفرد " (45) ويرى أننا نحتاج إلى نظرية نقدية عربية معاصرة، تنطلق من فهم واعٍ لزمنها التراثي بمصطلحاته النقدية المستقرة، وحاضرها المتجدد بحداثته حيث التفرد والتخصص، واستثمار واقع الثقافة العالمية المعاصرة ،من أجل إحياء حركة أدبية عربية تتمتع بعوالم إبداعها الخاص. " (46)

ومما سبق نلحظ أن هنا ك فجوة زمنية بين مجتمع غربي متحول باستمرار ومجتمع عربي يراوح في موقعه، أو يتحرك ببطء، ولعل هذه الفجوة الزمنية قد عكست نفسها وألقت بظلالها على الفضاء النقدي، فأدت إلى عدم القدرة على المواكبة وألجأت الناقدَ أحياناً إلى الاجتزاء، وأحيانًا إلى التجريب وغياب الرؤية ...

---

41 – تحليل الخطاب الأدبي محمد عزام اتحاد الكتاب العرب ط1 2003م، ص : 32.

42 –. نفسه، ص: 30

43 – شعرنا القديم والنقد الجديد ،وهب رومية ص:30.

44 – بعد الحداثة صوت وصدى، مصطفى ناصف، النادي الأدبي ،جدة ط1 ،2003، 397 . ص:30.

45 – مستقبل الشعر ، ص: 53.

46 – نفسه ، ص: 55.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي هذا المضمار تحاول د. نادية غازي العزاوي أن ترصد تجربة الناقد العربي من خلال محمد النويهي أنموذجاً، فتقول: " إن تجربة النويهي تظل عينه دالة إلى حد معين على الطبيعة الإشكالية التي يواجهها الناقد العربي المعاصر :

- بين الطموح إلى التغيير والتجديد والحرص على القديم وقوة نفوذه .
- بين الانفتاح على الغرب والرغبة في الحفاظ على خصوصية الهوية القومية .
- بين الحرص على ثبات الرؤية والمنهجية والمتابعة والمواكبة للإنجازات الجديدة أو الجمع التوفيقي بين معطياتها في ضرب من التجريبية النقدية .. وهي العلة الكامنة وراء ما يشهده نقدنا المعاصر من انتقالات الناقد الواحد نفسه بين مختلف المناهج من الانطباعية إلى النفسية إلى الواقعية ثم البنيوية ... إلخ حيث يتبع ويروج في كل مرحلة مذهبًا ما ،ثم سرعان ما ينعطف المد إلى منهج جديد، وترى أنه قد يكون للناقد أحياناً بعض العذر من تطور الزحف وتراكم الخبرة واختلاف الموضوعات، وأن المناهج بمرور الزمن وتقادم التجربة تؤتي أكلها ،مما يستدعي التحول إلى منهج جديد يَعِدُ بكشوفات جديدة .. ولكنها تظل على نحو أو آخر مؤشرًا على نوع من القلق الفكري والتذبذب الأيدلوجي على المستوي التنظيري والتطبيقي (47).

إن المنهج الغربي ابن لحظته التاريخية التي تشكله ويتجادل معها ،يسير معها في سياق بل سياقات متكاملة وحينما يستعار ليدغم في زماننا العربي ذي اللحظة الخاصة يكون أشبه بمشهد العربة التي تقود الحصان .

3- إشكالية المصطلح :

إن المصطلح في حده " دلالة خاصة تنتقل من خلال اللفظة من معناها العام إلى معناها الخاص، وهذا الانتقال يكسبها صفة الاختصاص والتخصص، مع وضوح ودقة في المعنى عند متلقيه من القراء والسامعين " (48).

وموقع المصطلح في منظومة اللغة شبيه بموقع السلطة في منظومة المجتمع، فإذا كانت الكلمات تنتمي إلى لغة عامة يتداولها المجتمع فإن المصطلح لغة خاصة تتداولها فئة خاصة ... فالمصطلح لغة داخل لغة تنشأ نتيجة لوعي خاص من ناحية ووعي خاص بدلالة الكلمات من ناحية أخرى... " (49).

---

47 – الناقد العربي المعاصر بين النظرية وإشكالات التطبيق محمد النويهي أنموذجا . نادية العزاوي .

48 – مستقبل الشعر وقضايا نقدية أخرى عناد غزوان، ص:15 .

49 – سلطان المصطلح سلطة المعرفة وتكريس اللوغوس، د . سعيد السريحي، علامات، ج 30 مج 8، شعبان، 1419هـ، ديسمبر 1988م، ص: 131.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والمصطلح النقدي ضرب من التخصص في جانب معين من جوانب الحركة النقدية والأدبية عامة، وعليه فإنه مظهر حضاري من مظاهر تطور الفكر الأدبي العام " (50). "

ويعد المصطلح لبنة أساسية من لبنات قيام نقد أدبي جاد وفعَّال في مقاربة النصوص الإبداعية إلى جانب المنهج نظرًا لما له من دور حاسم في ضبط المفاهيم وتوضيح الرؤى؛ ضمانًا للحد الأدنى المعقول من الموضوعية وتيسيرًا للتواصل المطلوب بين المهتمين والباحثين "(51)

"ونحن نعيش عصرًا يمكن وصفه بأنه عصر المصطلحات والمفاهيم التي صاحبتها، بحيث لم يتمكن النقاد العرب من تمثُّل آفاق هذه الثورة تماماً؛ لذا تباينت استجاباتهم منها موقفاً وتفاعلاً "(52).

لكن الأمر يختلف عن ذلك عندما يتم استعارة مناهج النقد الغربي في دراسة الأدب العربي، حيث يصبح المصطلح النقدي الغربي لصيقاً بالمناهج المستعارة، وذا حضور وافر، يزداد يومًا بعد يوم؛ مما جعل النقاد يشعرون " بأزمة حادة في المصطلح تصل في أحيان كثيرة إلى درجة العبثية " " وهو يمثل أزمة متجددة لا تفقد قوة دفعها في لحظة من اللحظات (53).

يقول شكري عياد " إشكال المصطلح أزمة أخرى لنقل انحراف آخر في مسار النقد الذي ينشر قضية اختلاف الترجمات اختلاف الاجتهاد، في المغرب يترجمون بطريقة معينة، في لبنان يترجمون بطريقة معينة، وكذلك في مصر يترجمون المصطلح الواحد بثلاثة مصطلحات أو أكثر.." (54)

وتتمظهر أزمة المصطلح النقدي بعدد من المظاهر أهمها :

الفوضى : إذ يرى النقاد أن فوضى المصطلح أضحت ظاهرة، بل إشكالية حقيقية؛ لأننا لا نزال نستخدم مصطلحات نقدية لم تستقر، ولم يزل يُختلف فيها، ولا نبحث عن المفهوم الواضح المحدد الدقيق لكل مصطلح "(55.) فضلاً عن أن " **المصطلح النقدي لا ينحت من عدم، أو ينشأ من فراغ لكنه عادة ما يكون امتدادًا لنفس الدلالة الفلسفية التي تنسحب على الدلالة النقدية واللغوية في غير انفصام** " (56).

50- مستقبل الشعر وقضايا أخرى، 52/51

51 – الترجمة والمصطلح – قراءة في إحدى مواد علامات ع (24)، عبد العالي بو طيب ، علامات ج 29، م 8، 1419هـ، سبتمبر 1998م . ص138.

52 – نحو نظرية عربية حديثة، محمد صابر عبيد، ص245 .

53 – أثر المناهج النقدية الحديثة في النقد العربي أزمة الخطاب النقدي ،. ص117

54 – أسئلة النقد، جهاد فاضل، 167-168. عن نقادنا ونقدنا العربي الحديث ص 58.

55 – شعرنا القديم والنقد الجديد، وهب روميه ص18

56 – المرايا المقعرة ص113

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

، ولذا يظل المصطلح **النقدي مفعمًا بمحمول ثقافي حضاري**، والمصطلح النقدي الغربي يعد إفراز تلقائياً لحركة الفكر العربي " ولا شك في أن غموضه، وعدم وضوحه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحركة الفكر الأدبي الغربي العام .. فإذا كانت تلك الحركة نفسها غير واضحة تماماً ألفينا الاضطراب في المصطلحات المؤدي إلى اضطراب في استنتاج الأحكام الأدبية واستنباط المعايير النقدية الواضحة المعالم والسمات ... "(57).

وهذا ما يراه محمد لطفي اليوسفي إذ يرى أن " من مآزق الخطاب النقدي المعاصر أنه خطاب يستقدم حشد مفاهيم مقتطعة من المناهج في المدارس الغربية وهي مناهج بنيت في القلق والسؤال والحيرة ..." (58)

وإذا كان المصطلح الغربي مضطربًا فإن عملية استعارته من قبل النقاد العرب تجعلهم يواجهون إشكالية حقيقية " حيث يتبدى من خلال المفردات نموذج حضاريٌ متكاملٌ تعجز الترجمة الحرفية عن نقله بل إنها تطمس معالمه أحياناً وتفصل المصطلح عن النموذج الحضاري الكامن وراءه " (59).ولهذا السبب نعى د. عبد الواسع الحميري على د الغذامي استعارته لجهازه الاصطلاحي من الذاكرة الثقافية الغربية لنقد ثقافة الأمة العربية فهو أي الغذامي " أراد أن يؤسس لمنهج في نقد نصوص الثقافة العربية ذاكرته في الجملة غير عربية فأنت لا يمكن أن تؤسس لمنهج في نقد الثقافة ثقافة أي أمة من الأمم، ما لم تستند إلى ثقافة تلك الأمة نفسها أوعلى الأقل إلى ما أسماه الدكتور الغذامي بـ الذاكرة الاصطلاحية لتلك الأمة "(60)

" إننا نستعير المصطلح النقدي ونخرجه من دائرة دلالية داخل القيم المعرفية فيجئ قريبًا، ويبقى غريبًا، ويذهب غريبًا، والنتيجة الطبيعية هي فوضى النقد التي خلقها الحداثيون العرب. (61) كما يرى د. عبد العزيز حمودة .

" وتنتهي النظرة المتمعنة في علاقة الخطاب النقدي العربي الحديث بالخطاب النقدي الغربي إلى نتيجة مفادها أن هذه العلاقة لم تقم على أساس من التثاقف والحوار المنهجي بقدر ما قامت على أساس من الاكتفاء بالإفادة بالمنجز الغربي في شكله النهائي الجاهز، ونقله إلى البيئة الثقافية

57- مستقبل الشعر ص53 .

58- صحيفة دفاتر الفلسطينية عدد 8 شباط 1997م ص 8، عن نقادنا ونقدنا العربي الحديث مقاربة عامة يوسف بكار، ص 47

59- الحداثة وما بعد الحداثة المسيري، ص111 " .

60- اتجاهات الخطاب النقدي العربي وأزمة التجريب، ص : 111.

61 - المرايا المحدبة ص37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العربية مجردًا من خلفياته المعرفية وأصوله الفلسفية واشتراطاته التاريخية ومن دون محاولة جادة لتهيئة ظروف استنبات موضوعية له مما جعل من هذا التثاقف حقيقة منقوصة (62)

وأزمة المصطلح – كما يراها د.حمودة – ليست أزمة ترجمة أي ليست أزمة نقل لفظ أو مصطلح من سياق لغوي إلى سياق لغويٍ آخر هو العربية وهو طبعًا حل أو مخرج سهل يلجأ إليه الحداثيون كثيراً .. **إن أزمة المصطلح كانت دائماً نتيجة وليست سبباً " (63)**

ومع ذلك فإن عدم وضوح المصطلح النقدي ناشئ عن سوء ترجمته حيناً أو سوء استعماله حيناً آخر " (64)

ويزداد الطين بلة حينما تتعدد الترجمات للمصطلح الواحد" فمثلاً مصطلح poetics ترجم إلى أكثر من عشر ترجمات عربية .. (65)

وكذلك مصطلح " البنيوية " ترجم إلى العربية بألفاظ مختلفة منها البنائية، والبنيوية و الهيكلية ،و المذهب التركيبي وغيرها، (66) .

وقد قام د. يوسف وغليسي بعمل إحصاء لترجمة مصطلحي السيميولوجيا والسيمانتك فوصل بها إلى ستة وثلاثين مصطلحاً عربياً، واستدرك بقوله " وما خفي عنا كان أعظم "(67)

وقد يلجأ بعض النقاد إلى نقل المصطلح الغربي كما هو في لغته ولكن بحروف عربية .

وربما عمد فريق آخر إلى" البحث عن مصطلح نظير للمصطلح الغربي، بالبحث في التراث النقدي العربي، ويخلطون بين المصطلحين العربي القديم الواضح الدلالة والاستقرار، والغربي الأجنبي الذي يكتنفه الغموض " مما يؤدي إلى الخلط والاضطراب "(68).

وهكذا تبرز إشكالية المصطلح النقدي وتزداد تعقدًا بمرور الزمن وتسارع حركة التحول في المجتمع الغربي بتعدد بيئاته ولغاته ومناهجه .

4- إشكالية التجريب :

إنَّ لكل جديد لذةً وسطوةً وإغراءً، وقد اتسمت حركة الحداثة الغربية بالتجدد المستمر، والتنوع والتسارع والتداخل، وعندما أخذ الناقد العربي يتطلع إلى محاكاة الجديد والمتجدد في حركة النقد

---

62 – النقد العربي الحديث من سلطة الإقصاء إلى إقصاء السلطة، صالح هويدي، علامات ج 22، مج 8، صفر 1420هـ مايو 1999م ص36.

63 – المرايا المقعرة ص91 .

64 – مستقبل الشعر ص53 .

65. المرايا المقعرة ص91 .

66- أزمة الخطاب النقدي د. عبد الستار جواد ص 119.

67- مناهج النقد الأدبي، د . يوسف وغليسي، جسور للنشر والتوزيع، ط1، 2007م، ص 101.

68 – مستقبل الشعر ص53.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الغربي عجز عن المحاورة الجادة الحقيقية، فاستسلم للحداثة الغربية التي بهرته ." كما استسلمت الحداثةُ العربية للحداثة الغربية وجاهدت جهادًا للالتحاق بها .. (69)

وقد كان التجريب النقدي متجسدًا في مسارين هما نقد النصوص ونقد نقد النصوص(70)

لقد شهد المجتمع العربي في العقود الثلاثة الأخيرة مرحلة هائلة من التجريب النقدي بكل ما تعنيه كلمة التجريب من الانبهار والتشتت والانتقاء، وعدم الوضوح واللهفة إلى اللحاق بالحداثة وغياب المنهج والنقد بين الاتجاهات النقدية"(71).

وقد أوغل النقاد العرب في التجريب على حساب التجربة، فلم يعد المنهج النقدي الوافد منسجماً مع تحولات الوعي والذائقة في المجتمع العربي، وكلما أخذ الدارسون يتكيفون أو يستوعبون منهجاً ما لا يلبث الناقد بتحويل وجهته شطر منهج آخر، يلهث خلف الموضة، ويغريه سرابها الأخَّاذ فنجد " اختلاف المناهج بين النقاد، واختلافها عند الناقد الواحد منهم "(72) مما جعل النقد الغربي " غير مستوعَبٍ بمعنى الإذابة في الثقافة المتلقية "(73)

وتكون حصيلة التجريب جملة من الدراسات المبعثرة وغير الوظيفية ولا المؤتلفة في مسار علمي، غير تقديم أسماء النجوم اللامعة في الفضاء الثقافي الغربي ... ومن النتائج الخطيرة التي يفضي إليها هذا الأمر أنه ليس بوسعنا الادعاء بأننا أفلحنا في التعريف بأسس مدرسة واحدة من المدارس الغربية أو تتبع اتجاه بمداخله المختلفة ومسالكه المتشعبة والأسس المعرفية البانية له والمتحكمة فيه .. ووجه الخطورة في ذلك يكمن في أننا سنظل ما دمنا على هذا الوضع غير قادرين على التأسيس لتراكم معرفي، وهو شرط يرتهن به كل مشروع للتقدم " (74)

ولا شك في أن الولع بالتجريب، واللهاث وراء كل جديد، يفرغ العملية النقدية من محتواها، ويحول دون تشكل وعي نقدي حقيقي لدى الناقد والمتلقي على السواء؛ لأن الكم القادم من الغرب ليس من السهولة بمكان متابعته ناهيك عن استيعابه وتمثله، ويصبح النقد اختزاليًا، فعلى سبيل المثال مصطلح الوحدة العضوية " كما ورد لدى كولردج، ونادى به العقاد والمازني لم يتم استيعابه كما هو من قبل هذه الناقدين فاختلطت عندهم الوحدة العضوية بوحدة الموضوع "(75) وربما لم يتمكن الناقد من تحقيق الانتقال من المستوى النظري إلى المستوى التطبيقي للمنهج، وقد عرض د.

---

69 – شعرنا القديم، وهب رومية / ص18.

70 – اتجاهات الخطاب النقدي العربي وأزمة التجريب، ص : 110

71 – نفسه ص31 .

72 – مستقبل الشعر ص54

73 – النقد الغربي والنقد العربي، ، محمد ولد بوعلية علامات ج47 م12 محرم /1424هـ مارس / 2003م . ص : 191

74 – النقد العربي الحديث، محمد ناصر العجيمي، 176 / 177

75 – . انظر دراسات في النقد الأدبي المعاصر، العشماوي ، ص :107.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قيس كاظم الجنابي " نظرية التلقي في النقد العراقي الحديث " من خلال أنموذجين هما حاتم الصكر في كتابه (ما لا تؤديه الصفة) وبشرى موسى صالح في كتابها (نظرية التلقي أصول وتطبيقات) وخلص الجنابي إلى أن الناقد العراقي أولى هذه النظرية اهتمامًا ملحوظًا ولكنه بقي على مستوى التطبيق متردداً ومتوجساً ."(76)

وهذا في رأي سيد البحراوي من الأمور الأكثر خطورة .. حيث تصبح المقولات والمفاهيم أقرب إلى الزينة أو التباهي بالمصطلح الجديد وليس لها فعالية حقيقية في الممارسة النقدية (77)

ويفضي التجريب بالنقاد إلى أن يسووا المعايير النقدية على عجل دون تريثٍ أو أناةٍ , فتضطرب بين أيدي جلهم المناهجُ وتتداخل وتتحول الثقافة النقدية إلى أشتات منهجية تكاد تستعصي على محاولة ردها إلى منهج بعينه أو مناهج متقاربة "(78)

وتذهب د. نادية العزاوي في معرض تقييمها لتجربة محمد النويهي إلى أن التجريبية النقدية " تعد العلة الكامنة وراء ما يشهده النقد العربي المعاصر من انتقالات الناقد الواحد نفسه بين مختلف المناهج . (79)

ويصبح التجريب النقدي عاملاً على تشويه الوعي النقدي وتشتيته، ويظل الناقد أكثر ولعًا به حينما " يتعامل مع الظواهر بمفاتيح المسلمات لا بأدوات الاستكناه، أي القراءة المتجددة التي تمتلك تراكمها الخاص" (80)" فضعْفُ التمثل يؤول إلى عدم القدرة على المساءلة، وركوب المسالك الوعرة، والنفاذ إلى الإشكاليات الدقيقة والشائكة ..فيكتفى بتوظيف بعض مبادئ الإجرائية المبسطة وفرض القوالب الجاهزة العامة المألوفة والمحفوظة لاطراد ترددها في الدراسات العربية "(81)

إنه تغييب للعقل الناقد، وتبديد لهاجس السؤال، فالسؤال لا يتأتى في ظل القفز الدائم .

ولتجاوز هذه الإشكالية يرى بعض النقاد ضرورة الحضور في فعل التجريب بكل ما تقتضيه عملية هذا الحضور (82) أي الإصغاء للذات وللنص وليس التجريب الشكلي البعيد عن روح التجربة المنبعثة من الأعماق .

5- إشكالية الغموض

---

76 – نظرية التلقي في النقد العراقي الحديث وعلاقتها بالقصيدة الحديثة، ص71 .

77 – البحث عن المنهج في النقد الحديث، دار شوقيات، القاهرة، 1993م انظر نقادنا ونقدنا العربي، ص 71.

78 – شعرنا القديم والنقد الجديد ص17 .

79 – الناقد العربي المعاصر بين النظرية وإشكالات التطبيق، محمد النويهي أنموذجاً ص224/223 .

80 – أحمد المديني , أسئلة الإبداع ص6 دار الطليعة بيروت ط1 , 85م .

81 – النقد العربي الحديث، محمد ناصر العجيمي ،ص: 178

82 – انظر اتجاهات الخطاب النقدي وأزمة التجريب، ص 100 وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن قضية الغموض والوضوح من القضايا الإشكالية التي دار فيها الجدل النقدي قديماً وحديثاً، ولعل الناقد عبد القاهر الجرجاني يرى أن " من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالمزية أولى وكان موقعه من النفس أجلّ وألطف "(83)

وعلى المنوال نفسه يسير أبو إسحاق الصابي الذي يعد الغموض ميزة إيجابية فيقول " أفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه. "(84)

" فكل شاعر " مبدع مسكون بهاجس البحث عن الطريف والتليد يجعل متلقيه يسهر ويختصم " في حين ينام هو ملء جنونه عن شوارد جديدة كما رأينا لدى المتنبي، أو كما رأينا لدى أبي تمام الذي سئل لماذا تقول من الشعر ما يفهم ؟ فأجاب منحياً باللائمة على المتلقي : ولماذا لا تفهم من الشعر ما يقال ؟ "(85)

ذلك هو شأن الغموض الشعري، قديماً، أما في العصر الحديث فقد أخذت إشكالية الغموض أبعادًا أكثر تعقيدًا، لكنّ المقاربة هنا لا تتجه إلى الخطاب الشعري بل إلى الخطاب النقدي، وكيف أصبح الغموض في هذا الخطاب جزءًا من إشكالياته.

ويرى بعض النقاد– ومنهم د المسيري – أن الغموض في عمومه يتصل بقضية أعمق هو الهجوم على علاقة الدال بالمدلول، في الفكر الغربي، ومحاولة تغييب الدلالة في متاهات الصيرورة، وهو هجوم منسجم مع الهجوم على المركز بعموم صيغة وليس ذلك نابعاً من فراغ، إنه ينطلق جذور فلسفية أي أنه تعبير عن العدمية الفلسفية، فالهجوم على اللغة كأداة تواصل بين البشر هو هجوم على المشروع الإنساني بأسره وعلى مفهوم الإنسانية المشتركة وعلى مقدرة الإنسان في أن يراكم المعرفة وأن يتعامل مع الآخرين من خلال منظومات معرفية وأخلاقية مشتركة." (86)

وإذا كان المسيري يكشف عن البذور الفلسفية لمسألة الغموض في الفكر الغربي الحديث فإن عبد العزيز حمودة يكشف عن خلفية الغموض من الناحية الإبداعية، ولا سيما الغموض النقدي إذ يرى أن سببه هو الموقف القائم على أن لغة النقد ليست لغة ثانوية بل أولية، وأن من حق الناقد أن يلفت نظر القارئ إلى نصه النقدي، فعل ذلك بشكل لافت رولان بارت وجاك دريدا وإيهاب حسن، وبذلك انتهت سلطة النص الإبداعي الذي توارى خلف النص النقدي، وكان ذلك وراء الغموض المتعمد، والمراوغة المقصودة التي يمارسها النص النقدي الحداثي وما بعد الحداثي مع قرائه إذ

---

83 – أسرار البلاغة ص : 126

84 – المثل السائر، ج4، ص : 716.

85 – انظر : الحداثة في الشعر اليمني المعاصر، عبد الحميد الحسامي، وزارة الثقافة، صنعاء، 2004م . ص117 .

86 – الحداثة وما بعد الحداثة، عبد الوهاب المسيرى، ص31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يفترض أن يرهق القارئ ذهنه في محاولة فك طلاسم ولوغاريتمات ذلك النص إلى درجة تنسيه عمليًا النص الإبداعي وسلطته " (87)

أي أن اللغة النقدية أخذت تبحث لها عن موقع جديد يخول لها الصدارة في العملية النقدية لكي تكتسب رتبة أعلى مما هي عليه، فلا تبقى شارحة للنص الإبداعي، ووسيطاً بين النص والقارئ، فنحن أمام رهان جديد للغة، يضاف إلى الرهان اللغوي الإبداعي، ويضاهيه، إنه رهان اللغة النقدية، التي تقدم النص الإبداعي من ناحية، ثم تقوم بتنفيذه بطريقة غير مباشرة من ناحية أخرى، تشرحه لتحقق حضوره وتلتف عليه لتقوم بمصادرته عندما تلهي المتلقي بها لا بالنص الإبداعي، وبدلاً من معاركة المتلقي ومكابدته لمشقة واحدة متمثلة بغموض النص الإبداعي، تجعله يكابد مشقتين : غموض النص الإبداعي، وغموض النص النقدي.

بيد أن د عبد المحسن بدر يعزو الغموض إلى عدم تمثل الناقد تمثلاً كاملاً لما يقول، بل أساسًا من عدم اتخاذه موقفًا نقديًا مما يقوله؛ لأنه لو اتخذ موقفًا نقديًا لتمكن من توصيل ما يقول، لكن ضبابية الرؤية تؤدي إلى ضبابية التوصيل (88)

ولم تقف العوامل المتصلة بالبعد الفلسفي، والبعد النقدي وحدها وراء إشكالية الغموض فهناك عوامل أخرى منها: الترجمة من الحقل النقدي الغربي إلى الحقل النقدي العربي " فمما يدهش أن كثيرًا من الترجمات العربية تزيد النصوص غموضاً، وتشوه الأصل الأجنبي، وهذا بالطبع راجع إلى ضعف المترجم أو الناقد الأدبي .. وافتقارهم إلى القدرة التي تمكنهم من الانتقال في رحاب اللغة برشاقة" (89)

كما أن من الآثار الكبيرة التي نجم عنها تطور الدراسات الألسنية ظاهرة الارتجال في نقلها إلى العربية، وذلك في رأي د. عبد الستار جواد قد أحدثت ضربًا من الفوضى في اللغة الأدبية المعاصرة نتج عنها عدم ثبات المصطلح النقدي وتعدد الترجمات وضبابية اللغة التي يتحدث بها أنصار البنيوية الأدبية والدراسات اللسانية "(90)

أما د.شلتاغ عبود فيرى أن غموض العلاقة بيننا وبين الأمم التي غلبت على أمرنا في العصر الحديث، حيث تقاس الأمور بمقدار قربها وصدورها عن الحياة الأوربية أو بعدها عنها لصحيح ما كان أوروبي المصدر والاتجاه والسقيم ما كان صادراً عن إنسان المنطقة وحضارة المنطقة "(91) ويدعو إلى ضرورة التصدي للكشف عما أحبط بهذه العلاقة من غموض وغبش في التصور .

---

87 – ا لخروج من التيه، عبد العزيز حمودة ، ص292

88 – انظر : شهادات، مجلة فصول، ص : 185–186 عن : نقادنا ونقدنا العربي الحديث ص 63.

89 – أزمة الخطاب النقدي عبد الستار جوا د، ص117.

90 – نفسه : ص116 .

91 – الأدب والصراع الحضاري، دار المعرفة، ط 1 ، 1995م، ص3.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما يؤكد عدد من النقاد ومنهم عناد غزوان أن من مظاهر الغموض اضطراب المصطلح النقدي وانعدام الحدود الموضوعية في دلالة اللفظة – المصطلح ... مما يؤدي إلى خلق أحكام مضطربة وضبابية يكتنفها الغموض والجهل معًا وخاصة في الثقافة الأدبية .. (92)

---

92 – مستقبل الشعر، ص51 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

مما سبق نستنتج ما يأتي :

(1) أن المنهج أو المناهج النقدية التي يستثمرها النقاد العرب في نقد الأدب العربي هي بالأساس مناهج نقدية غربية يحاول النقاد العرب أن يوظفوها في مقاربة النصوص الإبداعية العربية.

(2) أن هناك عددًا من الإشكاليات التي نجمت عن توظيف تلك المناهج النقدية الوافدة أبرزها :

(أ) التباين الثقافي :

حيث إن هناك تباينًا ثقافيًا بين الأمم الغربية المصدرة للمناهج وبين الأمة العربية والإسلامية التي لها خصوصيتها الثقافية والحضارية، ولا شك في أن توظيف المنهج الغربي بمحموله الثقافي يؤدي إلى إشكالية التباين الثقافي بين الثقافتين.

(ب) الفجوة الزمنية :

إذ إن الفجوة الزمنية بين نشأة المنهج النقدي الغربي وتطبيقه في السياق النقدي الغربي وبين استعارته لتوظيفه في دراسة الأدب العربي تسبب إشكالية تؤدي إلى ارتباك الناقد العربي والقارئ على السواء.

(ج) المصطلح :

إن انتزاع المصطلح النقدي الغربي من بيئته الغربية وتوظيفه في دراسة الأدب العربي يمثل إشكالية من إشكاليات المشهد النقدي العربي المعاصر، حيث إن المصطلح له خصوصيته المعرفية وينبثق عن تصور فلسفي معين، ولا يمكن أن يتم عزله عن حاضنته الأولى، ليم توظيفه في سياق معرفي آخر دون أن يحدث ذلك إشكالا، وهو ما تجسد في الخطاب النقدي العربي المعاصر .

(د) التجريب :

تعد إشكالية التجريب من الإشكاليات البارزة في الخطاب النقدي العربي المعاصر حيث أولع كثير من النقاد بالتجريب ومحاولة اجتلاب كل جديد في مضمار النقد دون التمثل الكافي له مما أدى إلى بلبلة نقدية واسعة .

(هـ) الغموض :

أثبتت الدراسة أن الغموض النقدي إشكالية من إشكاليات الخطاب النقدي المعاصر، وله عوامل عديدة منها العامل الفلسفي، المتجسد في غموض الذات الغريبة، وكذلك العامل اللغوي الذي يقضي بأن تكون اللغة النقدية لغة متعالية، ناهيك عن عامل الترجمة وغموض المصطلح .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(3) أن هذه الإشكاليات الناجمة عن توظيف مناهج النقد الغربية في دراسة الأدب العربي تقتضي أن تتضافر جهود مخلصة في تشكيل نظرية نقدية عربية، مستمدة من الذات العربية، ومخصبة بالتراكم المعرفي الإنساني .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com